الباب الثالث

القرآن في حياة السلف

هذه لحظات نقضيها مع بهاء الإيمان وإشراقه الحق، ونور البصيرة ولذة المناجاة وقرة عيون المؤمنين بتلاوة القرآن العظيم، وتنعم القلوب بروعة المعانى القرآنية وحكمة المواعظ الربانية، وتألق النفوس في رياض الهداية، وزيادة الإيمان فيها بترتيل وتدبر القرآن إنها وقفة مع الصادقين وشغف قلوبهم وألسنتهم بتلاوة كلام الله وإقبالهم عليه بكل شوق وحب فالقرآن أعظم ما نطق به لسان وترنم بآياته إنسان، وهو أطيب وأكمل ما استمعت إليه آذان، واقشعرت عند تلاوته الأجسام والأبدان، وعلى قدر الإيمان يكون الانشغال والشغف بالقرآن لأن كلام الملك الرحمن وعلى قدر حبه يكون حب الله في القلب والجنان. إن أسعد لحظات عمرك تلك التي تقضيها مع القرآن في صلاتك وفي خلواتك وذلك حين تأنس بخطاب ربك لك، وتستشعر قرب الله منك وحبه لك إذ وفقك وألهمك ذكره والتقرب إليه بكلامه. ويا لها من متعة ويا لها من لذة حين تكون من المتبتلين في الأسحار والتالين لكتاب الله آناء الليل وأطراف النهار.

وأود منكم إخوتي الكرام القارئين أن تعيدوا قراءة هذا الفصل مرات ومرات حيث إن فيه غرسًا للأسوة وحثًا على الاقتداء والاهتداء بالصالحين فتشبه بهم تنسب إليهم، خذ بهديهم تكن على دربهم، وإن سلكت سبيلهم فتلك هي النعمة الحقيقية. وذلك حين تذكر الله فيذكرك، وتتقرب إليه فيقربك وتدعوه فيستجيب لك، وتحبه فيحبك.

فهيا إخوتي إلى هذه الصور المتألقة والأنهار الإيمانية المتدفقة، والقدوات الرائعة الصادقة، والمواقف الكريمة المشوقة، تلك التي تحمل النفوس إلى سمّو الإيمان، وتطوف بها في بستان العلم والعرفان، وتأخذ بنواصيها إلى حدائق الحقائق وروائع البيان. تعالوا إلى حياة الصالحين والأئمة المهتدين، لعلنا نحذوا حذوهم ونسلك سبيلهم ونلتقي يوم

القيامة بهم فيكون مآلنا كمآلهم وما ذلك على الله بعزيز إنَّ ربنا ولى كل نعمة، عظيم الفضل واسع الرحمة وهو على كل شئ قدير.

أولًا - إمام الأئمة:

حقًا - أيها الأحبة أقول: إن القلب ليرتجف وإن الحلق ليجف من الهيبة والجلال الذي يعتري المرء حين يريد أن يتحدث عن هذا النبي الكريم والرسول العظيم، سيد الأولين والآخرين، وإمام العلماء العاملين وقدوة العباد الصادقين ولله در هذه النبيلة الفاضلة والحكيمة العاقلة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنه حين تسأل عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم فتجيب إجابة الحكيم المجرِّب فتقول: «كان خلقه القرآن»[(١)].

وهذا مشهد نبيل جليل يوقفك على حقيقة التعبد والحب لله جل جلاله والشغف الشديد بتلاوة كلامه والقيام به آناء الليل والحديث في صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فافتتح البقرة فقلت يركع عند المائة ثم يمضي فقلت يصلي بها في ركعة فمضى فقلت يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلًا إذا مَّر بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مَّر بسؤال سأل، وإذا مَّر بتعوُّذ تعوذ، ثم ركع فجعل يقول سبحان ربى العظيم فكان ركوعه نحوًا من قيامه معه ثم قال: «سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد» ثم قام قيامًا طويلًا قريبًا مما ركع ثم سجد فقال: سبحان ربى الأعلى فكان سجوده قريبًا من قيامه[(٢)].

ومثل هذا المشهد جرى مع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وكان من أحرص الصحابة على اتباع رسول الله وبرغم ذلك شق عليه طول القيام الذي قامه رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاته يتلو كلام الله حتى همَّ ابن مسعود أن يجلس ويدع النبي صلى الله عليه وسلم وهذا

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٦/ ٩١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١/ ١١٥) برقم [٣٠٨] وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم [٤٨١١].

(٢) رواه مسلم برقم [٧٧٢].

يفسر لك إصرار ابن مسعود على القيام برغم اتفاق العلماء على جواز الجلوس لمن شق عليه القيام والحديث عند البخارى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة فأطال القيام حتى هممتُ بأمر سوء قيل: وما هممت به؟ قال: هممت أن أجلس وأدعه»(١).

وليس هذا أوذاك موقفًا عابرًا في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل كان هذا دأبه وحاله في غالب عمره صلوات الله وسلامه عليه ويبين لك ديمومة ذلك ودوامه في حياة رسول الله قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحُّب أن أكون عبدًا شكورًا؟!»(٢).

وها هو النبي صلى الله عليه وسلم عندما يستيقظ من نومه في الليل يبدأ أول ما يبدأ بتلاوة آيات من كتاب الله جل جلاله كما في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: بتُّ عند خالتى ميمونة فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة ثم رقد فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧٧] ثم قام فتوضأ واستن فصلى إحدى عشرة ركعة ثم أذن بلال فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى بالناس الصبح(٣).

وفيهما بلفظ آخر قال رضي الله عنه: حتى إذا انتصف الليل أو قبله أو بعده بقليل استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من منامه فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده ثم قرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران ثم قام إلى شَنٍّ معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه ثم قام يصلي».

---

(١) رواه البخارى برقم [١١٣٥] ومسلم برقم [٧٧٣].

(٢) رواه البخارى برقم[٤٨٣٧]، ومسلم برقم [٢٨٢٠].

(٣) رواه البخارى رقم [٤٥٦٩]، ومسلم برقم [٧٦٣].

وها هو موقف رقيق يأخذ بالألباب ويأسر العقل حينما يرى النبي ﷺ يطلب من صحابي كريم أن يتلو عليه القرآن ويعلل النبي ذلك بأنه يحب أن يسمع القرآن من غيره فيفتتح الصحابي سورة من كتاب الله حتى تذرف عين رسول الله ﷺ بالدموع ويرق قلبه بالبكاء والحديث في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**اقرأ عليَّ القرآن**» قلت: يا رسول الله! أقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**» فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال: «**حسبك الآن**» فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان[(١)].

تأمل حب رسول الله ﷺ لسماع القرآن من غيره وما قرأ قارىء القرآن مثل رسول الله في الحسن والجودة والرقة والروعة وطلاوة التلاوة وجمال القراءة ولكنه ﷺ يحب أن يسمع من غيره القرآن ولعل لنا في ذلك درسًا تربويًا وهو أنك قد تتأثر بتلاوة قارىء حسن الصوت، جذاب التلاوة فيكون ذلك عاملًا قويًا من عوامل تدبر القرآن العزيز.

وعن أم هانئ فاخته بنت أبي طالب رضي الله عنها قالت: كنت أسمع قراءة النبي ﷺ بالليل وأنا على عريشي[(٢)].

حتى في سفره على راحته ما كان رسول الله ﷺ يغفل عن القراءة للقرآن وذكر الله عَزَّ وَجَلَّ والصلاة في السفر على الراحلة قال البخاري رحمه الله باب القراءة على

---

(١) رواه البخاري برقم [٥٠٥٠] ومسلم.

(٢) رواه النسائي وابن ماجه والترمذي في «الشمائل» وصححه الألباني في «مختصر الشمائل»، ص [١٦٧]، رقم [٢٧٢].

الدابة وذكر عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه أنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة وهو يقرأ على راحته سورة الفتح[١].

قال ابن بطال: إنما أراد بهذه الترجمة أن في القراءة على الدابة سنة موجودة وأصل هذه السنة قوله تعالى:﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف: ١٣][٢].

وها هو نبينا صلى الله عليه وسلم يعلمنا الحرص على تلاوة القرآن دائمًا حتى قبيل النوم كما روى البخاري عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما «﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ثم يمسح وجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات»[٣].

بالله قل لي: أين أنت من هذه السنة هل تؤديها كل ليلة؟! هل تحرص عليها؟! هل تتقرب إلى الله بها؟! هَلُمَّ فاعمل فقد علمت وفقني الله وإياك لكل خير.

وعنها رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقر عليه وأمسح بيده رجاء بركتها[٤]، وعند مسلم أنها رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مرض أحدٌ من أهله نفث عليه بالمعوذات فلما مرض مرضه الذي مات فيه جعلت أنفث عليه وأمسح بيد نفسه لأنها كانت أعظم بركة من يدي[٥].

---

(١) رواه البخاري برقم [٥٠٣٤].

(٢) «فتح الباري» (٨/ ٧٠١)، ط: الريان.

(٣) رواه البخاري برقم [٥٠١٧].

(٤) رواه البخاري برقم [٥٠١٦].

(٥) رواه مسلم برقم [٢١٩٢].

وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان رضي الله عنها قالت: ما حفظتُ «ق» إلا من فيِّ رسول الله ﷺ يخطب بها كل جمعة[١]. قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار كالعيد والجمع لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب[٢].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[٣].

وها هو النبي ﷺ يعلم صحابته القرآن يربيهم على أحكامه ويقيمه في حياتهم ليكون هو المهيمن المسيطر على هذه الحياة وحينئذ نرى أصدق صورة للعبودية وأروع مثال لتحقيق الإيمان في واقع الحياة متمثلًا في هذا الجيل الفريد وهذا الطراز الكريم وتلك الثلة الكريمة التي رباها رسول الله ﷺ وهم صحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين ولنأخذ صورًا من تعليم النبي ﷺ القرآن لأصحابه.

عن أبي سعيد رافع بن المعلَّى رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**ألا أعلمك أعظم سورة من القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟**».

فأخذ بيدي فلما أردنا أن نخرج قلت: يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن؟ قال: «الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»[٤].

---

(١) رواه مسلم برقم [٨٧٣].

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٣٠٣).

(٣) رواه الترمذي برقم [٢٨٩٢] وأحمد (٣/ ٣٤٠) وصححه الألباني في الصحيحة رقم [٥٨٥].

(٤) رواه البخاري برقم [٤٤٧٤].

وهذا ابن مسعود رضي الله عنه يقول: والذي لا إله غيره لقد قرأت من فيِّ رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة ولو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله منى تبلغنيه الإبل لأتيته(١).

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا المنذز أتدرى أي آية من كتاب الله معك أعظم؟**» قلت: « الله لا إله إلا هو الحي القيوم» فضرب في صدري وقال: «**ليهنك العلم أبا المنذر**»(٢).

إن النبي ﷺ هو القدوة الكاملة، والأسوة الحقيقية في كل باب من أبواب الخير والإيمان والتقى لا سيما في هذا الباب حيث امتلأت حياة النبي ﷺ كلها بتلاوة القرآن والقيام به ومدارسته وتدبره وتعليمه وتحكيمه وتعظيمه والأمثلة في ذلك أكثر من أن تحصر ولعل فيما ذكرنا كفاية وهداية لمن أراد الاقتداء والاهتداء بسيد الأنبياء ﷺ. هذا هو رسول الله وهذا حاله مع القرآن ملازمة للتلاوة في مختلف الأحوال، في السفر والحضر، في السلم والحرب، في الصحة والمرض، في الصلاة وخارجها، في الليل والنهار، في المسجد والبيت وعلى الراحلة، وقبيل النوم وبعد الاستيقاظ من النوم كان ﷺ قرآنًا يمشى على الأرض كما وصفت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فمن أحب رسول الله فهذا هو هديه فليتبعه، وليحرص في كل موطن وفي كل يوم وليلة على تلاوة القرآن والاستقامة على ذلك ما دامت به حياة. اللهم نسألك من فضلك العظيم، اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك.

ثانيًا- الصحابة الكرام:

ذلكم هو الجيل الفريد، والقدوة الصادقة للناس كافة بعد رسول الله ﷺ وحينما يتأمل المرء في حياتهم يرى نضارة الإيمان وصدق اليقين وروعة التبتل وجلال

(١) رواه البخاري برقم [٥٠٠٢]، ومسلم برقم [٢٤٦٣].
(٢) رواه مسلم برقم [٨١٠].

التعبدّ تسمع لهم في الليل دويًا كدوى النحل بتلاوة القرآن، ونلهج ألسنتهم وقلوبهم بتلاوة كلام ربهم، وتتلألأ بيوتهم بطيب التلاوة آناء الليل والنهار فتعالوا نأخذ قبسًا من نور هديهم لعلنا نتشبه بهم ونسير على دربهم وعسى ربنا عز وجل أن يلحقنا بهم إنه ولى ذلك ومولاه.

١- صديق الأمة أبو بكر رضي الله عنه:

وهذا هو المؤمن البكاء، حبيب الحبيب وخير رجل في الأمة بعد نبيها، إنه صديق الأمة الأكبر أبو بكر بلغ من رقة قلبه بالقرآن أن عُرف أنه لا يمالك نفسه عن البكاء عند تلاوة القرآن وترتيله كما عند البخاري من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في مرضه: «**مُروا أبا بكر فليصل بالناس**» قالت عائشة رضي الله عنها: إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء فمر عمر فليصل بالناس ففعلت حفصة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مه إنكن لأنتن صواحب يوسف، مُروا أبا بكر فليصل بالناس**» فقالت حفصة: ما كنت لأصيب منك خيرًا[1].

وكان هذا حاله في صلاته عندما يتلو كتاب الله ويتدبره وهذه حالة الصديقين والصالحين التقرب إلى رب العالمين بتلاوة كتابه الكريم لا سيما في الصلوات والخلوات بتدبرو فهم وتعقل للآيات تأمل هذا المشهد المهيب الجليل الذي زلزل أهل مكة برغم أنه ما تكلم وما دعا وإنما صلى فقط ورآه المشركون ففزعوا من هذا المشهد النبيل المؤثر وخافوا أن يدخل أبناؤهم ونساؤهم في الإسلام تأثرًا وإعجابًا بهذا المشهد الرقيق الخاشع الذي يبدو فيه الصديق أثناء تلاوته لكلام الله في صلاته والحديث عند البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها وفيه قالت رضي الله عنها: فلما ابتُلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرًا نحو أرض الحبشة حتى بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة- فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي قال ابن الدغنة:

---

(١) رواه البخاري برقم [٦٧٩].

فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يُخْرَج إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فأنا لك جار. ارجع وأعبد ربك ببلدك فرجع وارتحل معه فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج أتخرجون رجلًا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها وليقرأ فيها ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبنائنا فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبي بكر لذلك يعبد ربَّه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدًا بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فيتقذف عليه نساء قريش وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلًا بكَّاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدًا بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه وإنا خشينا أن يفتن نساءنا وأبنائنا فانهه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك فإنا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان، قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي عاقدتُ لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلى ذمتي فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرتُ في رجل عقدتُ له فقال أبو بكر: فإني أرد عليك جوارك وأرضي بجوار الله عَزَّ وَجَلَّ»[1].

واسمح لي أخي الحبيب أن أقف مع هذا الحديث وقفه لنستخرج منه بعض الدروس والعبر، من الفوائد التي نأخذها من هذا الحديث ما يلي:

١- شدة تأثير القرآن حتى على المشركين فقد أفزعهم قراءة أبي بكر له وتقذف عليه نساؤهم وأولادهم ينظرون إلى صلاة الصديق ويستمعون قراءته.

---

(١) رواه البخاري برقم [٣٩٠٤].

٢- رقة قلب الصديق وغزارة دمعه عند تلاوة القرآن وهذا من عظيم معرفته بجلال ربه وشده خشيته له.

٣- الصلاة من أكثر المواطن التي يمكن أن يحصل فيها تدبر القرآن والتفكر في معانيه والتأثر بها.

٤- كثرة إقبال الصديق على التلاوة والصلاة إذ لو كان ذلك مرة واحدة أو مرات معدودة لم يؤثر ذلك في قريش بهذه الصورة التي أفزعتهم وإنما كان هذا الموقف منهم لمداومة الصديق على ذلك وإكثاره منه.

٥- شدة ما وقع على المؤمنين من الأذى والذي منه الإخراج من الأرض والإبعاد منها وهذه سنة جارية بين أهل الباطل والمستضعفين من المؤمنين.

٦- في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق، والرصيد الكبير من الأخلاق الفاضلة يصطنع للمرء عند الناس منزلة ومكانة حتى ولو كانوا مشركين، فأحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم. وتخلق بهذه الأخلاق النبيلة يكن لك بين الناس مكانة وفضيلة.

٧- ثقة الصديق في ربه ويقينه بحفظه حيث ردَّ على الرجل جواره ورضى بجوار الله وحفظه وحده. وما كان جوار الرجل إلا سببًا من الأسباب المباحة بل المطلوبة شرعًا ولكن جوار الله أمنع وأحفظ وأبقى وآمن.

وهذا هو الصديق الأواه الأواب تأتيه الآية من كتاب الله فيقف عندها ويذعن لحكم الله فيها ويستلم استسلامًا كاملًا لأمر الله جَلَّ جَلَالَه. وهذا هو الموقف المشهور في حادثة الإفك حيث آذاه مسطح بن أثاثة وخاض فيما خاض فيه أهل الإفك، ولما أنزل الله براءة أم المؤمنين حلف الصديق ألا ينفق على مسطح ولكن القرآن يتنزل فيؤمر الصديق بالخلق الأكمل وهو أن يعيد النفقة لهذا المسكين، فأذعن على الفور واستجاب في التو والحديث في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، قالت: فلما أنزل الله براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه - وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره -: والله لا أنفق

على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢]. قال أبوبكر: بلي والله إني أحب أن يغفر الله لي فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه وقال والله لا أنزعها منه أبدًا[١].

ومن أروع المواقف التي تدل على فهم الصديق للقرآن وحفظه وتدبره لآياته هذا الموقف الذي أذهل العقول وأخرس الألسنة وزلزل القلوب فجاء الصديق رضي الله عنه ليعيد الحق إلى نصابه، والعقل إلى صوابه، وظهر في هذا الموقف علمه وفضله ويقينه وحلمه رضوان الله عليه وذلك حينما استدل بالقرآن عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم استدلالًا أخرج الناس من ذهولهم وحيرتهم ورجعوا إلى الفهم الصحيح رجوعًا جميلًا فالله وحده هو الحي الذي لا يموت وهو الذي يستحق العبادة وحده، والإسلام باق بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم.

لما سمع أبو بكر خبر موت رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل على فرس من مسكنه بالسفح حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتمَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مغطى عليه بثوب حبرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكي ثم قال: بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين؛ أما الموتة الأولى التي عليك فقد مُتَّها[٢].

وخرج أبو بكر وعمر يتكلم فقال: اجلس يا عمر وهو ماض في كلامه وثورة غضبه فقام أبو بكر في الناس خطيبًا بعد أن حمد الله وأثنى عليه. أما بعد، فإن من كان يعبد محمدً فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم تلا هذه الآية ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ

(١) رواه البخاري برقم [٤٧٥٠]، ومسلم برقم [٢٧٧٠].

(٢) رواه البخاري برقم [٤٤٥٢] والسُّنح موضع بعوالي المدينة كان فيه منزل الصديق.

وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. فنشج الناس يبكون(١).

قال عمر: فوالله ما إن سمعت أبا بكر تلاها فهويتُ إلى الأرض ما تحملني قدماي وعلمت أن رسول الله قد مات(٢).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: هذه الآية أدل دليل على شجاعة الصديق وجراءته فإن الشجاعة والجرأة حدهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي ﷺ فظهرت شجاعته وعلمه، قال الناس لم يمت رسول الله ﷺ منهم عمر وخرس عثمان واستخفى علي واضطرب الأمر فكشفه الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسنح(٣).

هكذا البصيرة النافذة واليقين الراسخ والعلم والحكمة كان ذلك حال الصديق وفي هذا الموقف تجلت هذه المعاني وظهرت وإنما يعرف الرجال في المواقف تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: والله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس فما سمع بشرٌ إلا يتلوها(٤) وهذا المشهد يدل على عظمة الصديق للقرآن ومداومته لتدبره وتلاوته.

وروى الزهري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا بكر رضوان الله عليه قرأ في صلاة الصبح البقرة فقال عمر كادت الشمس أن تطلع فقال: لو طلعت لم تجدنا غافلين(٥). وظل القرآن الكريم هو شغل الصديق وأنيسه في حيانه كلها حتى موته.

---

(١) رواه البخاري برقم [٣٦٦٨].

(٢) رواه البخاري برقم [٤٤٥٤].

(٣) رواه البخاري (٤/ ١٩٧)، ط: التوفيقية.

(٤) رواه البخاري برقم [١٢٤١].

(٥) «الانتصار للقرآن» (١/ ١٨٢)، ط: دار ابن حزم.

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: لما مرض أبو بكر مرضه الذي مات فيه دخلت عليه وهو يعالج ما يعالج الميت ونفسه في صدره فتمثلت هذا البيت:

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدْرُ

قالت: فنظر إلى كالغضبان ثم قال: ليس كذلك يا أم المؤمنين ولكن قول الله أصدق ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[ق: ١٩][(١)].

٢- عمر الفاروق رضي الله عنه:

وهذا هو العالم العامل العابد، الحازم العادل المسدد بالصواب عمر بن الخطاب تلمح في حياته التعظيم والتوقير والإجلال للقرآن ومدارسة القرآن والقيام به بين يدي الله عَزَّ وَجَلَّ، مؤتمرًا بأوامره، واقفًا عند حدوده، خاشعًا لمواعظه، بكاء عند تلاوته، مفسرًا لآياته مهتمًا بمعرفة أحكامه ومن شواهد ذلك ما يلي:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عيينة بين حصن فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدينهم عمر رضي الله عنه وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهؤلاء كانوا أو شبانًا فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عبد هذا الأمير، فاستأذن لي عليه فاستأذن له فأذن له عمر رضي الله عنه فلما دخل قال: هي ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل، فغضب عمر رضي الله عنه حتى همَّ أن يوقع به فقال الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم «خذ العفو وأسر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقَّافًا عند كتاب الله تعالى[(٢)].

---

(١) «صفة الصفوة» (١/ ٢٦٦)، و«الطبقات» لابن سعد (٣/ ١٩٧)، ط: دار صادر.

(٢) رواه البخاري برقم [٤٦٤٢].

وهذا الحديث الكريم نستخلص منه الشواهد والفوائد التالية:

١- تعظيم عمر للقرآن بتعظيم حملته دليل ذلك«وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولًا كانوا أو شبانًا».

٢- الوقوف عند كتاب الله والإذعان لقول الله فبرغم أن الرجل أساء الأدب وأفحش في القول وتعدىَّ وظلم بما قال إلا أن الآية نزلت على قلب عمر دواء لانفعاله وثورته.

٣- حياة عمر كلها كان فيها هذا المعنى العظيم دليل ذلك«وكان وقَّافا عند كتاب الله تعالى».

٤- حلم عمر وعفوه واحتماله الأذى وجهل الجاهلين برغم ما عهد عنه من شدة ولكنه الإيمان الذي يصنع المواقف النبيلة الكريمة.

٥- فضل الجليس الصالح وبركة مجالسته فلما كان الجلساء صالحين متقين أمروا بمقتضى الصلاح والتقوى، والأحسن والأكمل.

٦- ليس هناك من الناس إلا ويحتاج إلى تذكير لا سيما وقد رأينا هذا الموقف للمُحَدَّث الملهم عمر كيف يتغير موقفه عندما ذكر.

٧- لا يشترط في الناصح أن يكون فاضلًا ويكون المنصوح مفضولًا فعمر أفضل من الحر بدرجات كبيرة ولكنها النصحية الواجبة الموفقة حينما تكون خالصة لله.

٨- تواضع الفاروق حيث رجع عما همَّ به وهو أمير المؤمنين لقول أحد جلسائه وقبل قوله.

٩- معاملة الناس بقدر عقولهم وعلمهم إذ إن هذا يحتمل من أعرابي ولا يحتمل ممن عاش في المدينة وعاشر أهلها.

وكانت مجالس عمر بن الخطاب رضي الله عنه عامرة بتدارس القرآن وتعلمه ومن ذلك.

قال عمر رضي الله عنه لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: فيم ترون هذه الآية نزلت ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

قالوا: الله أعلم فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أولا لا نعلم فقال ابن عباس رضي الله عنهما: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين قال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك قال ابن عباس: ضربت مثلًا لعمل قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله[1].

وفي رواية قال ابن عباس: عنى بها العمل ابن آدم أفقر ما يكون إلى عمله يوم يبعث فقال عمر: صدقت يا ابن أخي[2].

وعن يعلى بن أمية قال سألت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قلت: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [النساء: ١٠١]. وقد أمن الناس فقال لي عمر: عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته[3].

وأخرج البخاري حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ٤٩).

(٢) «الخلافة الراشدة»، د. يحيي اليحيي، ص [٣٠٥]، نقلًا عن عمر بن الخطاب للصلابي ص [٤٧ - ٤٨] دار الإيمان.

(٣) رواه احمد برقم [١٧٤].

فقال عمر: إنه من قد علمتم فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم فقال: ما تقولون في قوله الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر: ١].

فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا فقال: ما تقول؟ فقلت هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فذلك علامة أجلك«فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا». فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول[1].

ومن تفسيره وتعليقه على بعض الآيات في مجالسه الكريمة ما يلي:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سئل عمر بن الخطاب. عن قوله تعالى ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قال: يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في الناس فذلك تزويج الأنفس.

وفي رواية عن النعمان أن عمر قال للناس: ما تقولون في تفسير هذه الآية ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾؟ فسكتوا يزوَّج نظيره من أهل النار ثم قرأ ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾[2].

وعن أبي عمران الجوني قال: مَّر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدير راهب قال: فناداه: ياراهب، فأشرف قال فجعل عمر ينظر إليه ويبكي فقيل له: يا أمير المؤمنين ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله في كتابه: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٣-٤] فذاك الذي أبكاني[3].

---

(١) رواه البخاري برقم [٤٢٩٤].

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٨/ ٢٦٠).

(٣) السابق (٨/ ٣٠٠).

وعن عبيد بن عمير قال: صلى بنا عمر صلاة الفجر فافتتح سورة يوسف فقرأها حتى بلغ: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:٨٤]. بكي حتى انقطع فركع قال أبو عبيد في غير هذا الحديث لما انتهي إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦] بكي حتى سمع نشيجه من وراء الصفوف(١).

وعن جابر بن عبد الله قال: رأى عمر في يدي لحمًا معلقًا قال: ما هذا يا جابر؟! اشتهيت لحمًا فاشتريته فقال عمر: كلما اشتهيت اشتريت! أما تخاف هذه الآية ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾؟![الأحقاف:٢٠](٢).

في مواعظه وفي خطبه وفي نصائحه وفي كلامه كان دائم الاستشهاد بكلام الله جَلَ جَلَاله ومن ذلك أيضًا ما ورد عن أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوًا أنفسكم قبل أن توزنوا فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا ان تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوًا للعرض الأكبر يؤمئذ تعرضون لا تخفي منكم خافية» [الحاقة:١٨](٣).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما أظن أهل بيتٍ من المسلمين لم يدخل عليهم حزن يوم أصيب عمر إلا أهل بيت سوء إن عمر كان أعلمنا وأقرأنا لكتاب الله وأفقهنا في دين الله(٤).وعن ابن عباس عن عمر أنه كان إذا دخل بيته نشر المصحف فقرأ فيه(٥).

٣- عثمان بن عفان رضي الله عنه:

وذلكم هو الخليفة الراشد الصحابي، القانت التقي الحيي، زوج ابنتي النبي، ذو النورين وصاحب الهجرتين والمبشر بالحسنيين، إنه الأواب الخاشع، العابد العالم،

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٦٧) وبنحوه في «تفسير الطبري» (٦/ ٧٠) ط: الرسالة.

(٢) رواه أحمد في «الزهد» برقم [١٥٣].

(٣) «صفة الصفوة» لابن الجوزي (١/ ١١٢)، ط: دار المنار.

(٤) «الانتصار للقرآن» للباقلاني(١/ ١٨٨)، ط: دار ابن حزم.

(٥) «فضائل القرآن» لابن كثير، ص[٢٠]، ط: ابن تيمية.

القارئ المتقن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال محمد بن سيرين حين قتل: لقد قتلتموه وإنه ليحيي الليل كله بالقرآن في ركعة.

وقال: لما أحاطوا بعثمان ودخلوا عليه ليقتلوه، قالت امرأته: إن تقتلوه أو تدعوه فقد كان يحيي الليل بركعة يجمع فيها القرآن(١).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: قال عبد الرحمن بن عثمان التميمي قلت: لأغلبن الليلة النفر على الحجر - يعني المقام - فلما قمت فإذا رجل يزحمني مقنعًا قال: فالتفت فإذا بعثمان يزحمني فتأخرت عنه فصلى فإذا هو يسجد بسجود القرآن حتى إذا قلت هذا هو أذان الفجر أوتر بركعة لم يصل غيرها ثم انطلق وقد روى من غير وجه أنه صلى بالقرآن العظيم في ركعة واحدة عند الحجر الأسود أيام الحج، وقد كان هذا من دأبه رضي الله عنه ولهذا روينا عن ابن عمر أنه قال في قوله تعالى ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩] قال: هو عثمان بن عفان. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٦] قال: هو عثمان.

وقال حسان:

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يُقَطِّعُ الليل تسبيحًا وقرآنًا

وقال إسرائيل بن موسى سمعت الحسن يقول قال عثمان:

لو أن قلوبنا طهرت ما شبعت من كلام ربنا، وإني لأكره أن يأتي عليَّ يوم لا أنظر في المصحف. وما مات عثمان حتى خرق مصحفه من كثرة ما يديم النظر فيه.

وقال أنس ومحمد بن سيرين قالت امرأة عثمان يوم الدار اقتلوه أو دعوه فوالله لقد كان يحيي الليل بالقرآن في ركعة(٢).

---

(١) «الحلية» لأبي نعيم (١/ ٩٤)، ط: دار الكتب العلمية، و«الطبقات» لابن سعد (٣/ ٧٦)، ط: دار صادر.

(٢) «البداية والنهاية» (٧/ ٢٠٣)، المجلد الرابع، ط: دار الحديث بالقاهرة.

وعن أبي سعيد قال: ضربوه فجري الدم على المصحف على ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وقال عبد الله بن شقيق: إن أول قطرة قطرت من دمه علي ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾. فإن أبا حريث ذكر أنه ذهب هو وسهيل المرى فأخرجوا إليه المصحف فإذا قطرة الدم على ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قال فإنها على المصحف ما حُكَّت.

وقال أبو سعيد مولى أبي أسيد فتح عثمان الباب ووضع المصحف بين يديه فدخل عليه رجل فقال: بيني وبينك كتاب الله، فأهوى إليه بالسيف فاتقاه بيده فقطعها فقال: والله إنها لأول كفٍّ خطت المفصَّل[(١)].

رضي الله عن عثمان، فبيده خط القرآن وفي قلبه قد حفظه وبلسانه قام به بين يدي ربه وترنم به آناء الليل والنهار قال القاضي الباقلاني عن عثمان رضي الله عنه: وقد كان من المشهورين بقراءة القرآن وكثرة درسه والقيام به في آناء الليل والنهار، وإكثاره من ذلك وبلوغ الغاية القصوي منه هذا مع سنه وسابقته وتقدم إسلامه وعظم محله من الدين والمسلمين[(٢)].

٤- علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

عاش أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حياته مع القرآن تلاوة وحفظًا وتدبرًا وفهمًا وعملًا قال السيوطى رحمه الله: وعلي رضي الله عنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأخو رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمؤاخاه وصهره على فاطمة سيدة نساء العالمين رضي الله عنها، وأحد السابقين إلى الإسلام، وأحد العلماء الربانيين، والشجعان المشهورين، والزهاد المذكورين، والخطباء المعروفين، وأحد من جمع القرآن وعرضه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرض عليه أبو الأسود الدؤلي، وأبو عبد الرحمن السلمي وعبد الرحمن

(١) «السير» للذهبي (٢/ ٥٤٣-٥٤٤)، ط: التوفيقية.

(٢) «الانتصار للقرآن» للباقلاني (١/ ١٩٠).

بن أبي ليلى وهو أول خليفة من بني هاشم وأبو السبطين بل قال ابن عباس وأنس وزيد بن أرقم وسلمان الفارسي وجماعة: إنه أول من أسلم ونقل بعضهم الإجماع عليه[١].

وورد عنه أنه قال رضي الله عنه: والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت، وأين نزلت وعلى من نزلت إن ربي وهب لي قلبًا عقولًا ولسانًا صادقًا ناطقًا.

وقال: سلوني عن كتاب الله، فإنه ليس من آية إلا وقد عرفتُ بليل نزلت أم بنهار، في سهل أم في جبل.

وقال: الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله، ولم يُؤَمِّنْهُمْ من عذاب الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره لأنه لا خير في عباده لا علم فيها ولا علم لا فهم معه ولا قراءة لا تدبر فيها[٢].

وكان يقول رضي الله عنه: ما كنت أرى أحدًا يعقل ينام قبل أن يقرأ الآيات الثلاثة الأواخر من سورة البقرة[٣].

ولقد أوتي رضي الله عنه فهمًا دقيقًا في القرآن فقد روى البخاري والترمذي وغيرهما عن أبي جحيفة قال: قلت لعلي: يا أمير المؤمنين هل عندكم سوداء في بيضاء أليس في كتاب الله؟ قال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما علمته إلا فهمًا يعطيه الله رجلًا في القرآن. وما في الصحيفة. قلت: وما في الصحيفة؟ قال العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مؤمن بكافر[٤].

---

(١) «تاريخ الخلفاء» للسيوطي، ص[١٢٥]، ط: دار المنار.

(٢) السابق (١٣٨- ١٣٩).

(٣) «التبيان» [٢٦٦].

(٤) رواه البخاري [٣٠٤٧]، والترمذي [١٤١٢] وهذا لفظه.

ومن فهمه العميق للقرآن أنه حكم وقضى ببراءة امرأة من الزنا وكانت قد ولدت بعد ستة أشهر من زواجها فحكم على ببراءتها من الزنا حيث جمع بين قول الله تعالى ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾[البقرة:٢٣٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف:١٥]. فقال: الحمل ستة أشهر والفصل أربعة وعشرون شهرًا [(١)].

أي أنه طرح مدة الرضاعة وهي السنتان من مجموع مدة الحمل والرضاع معًا وهي ثلاثون شهرًا فبقيت ستة أشهر.

وقد كان أبو عبد الرحمن السلمي من حفاظ كتاب الله تعالى وأهل العلم به وهو يعترف لعليّ رضي الله عنه بأنه لم يرى رجلًا أقرأ للقرآن منه عن عطاء بن السائب أن أبا عبد الرحمن السلمي حدثه فقال: ما رأيت رجلاً أقرأ للقرآن من علي بن أبي طالب صلى بنا الصبح فقرأ سورة الأنبياء فأسقط آية ثم قرأ تدرجًا ثم رجع إلى الآية التي أسقطها فقرأها ثم رجع إلى المكان الذي انتهى إليه لا يتتعتع.

وقال أبي عبد الرحمن السلمي أيضًا: صلى بنا عليٌّ في شهر رمضان فقرأ بنا عشر آيات عشر آيات [(٢)].

٥- عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

قال رضي الله عنه : والذي لا إله غيره لقد قرأت من فيِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعًا وسبعين سورة ولو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله منى تبلغنيه الإبل لأتيته [(٣)].

---

(١) مصنف عبد الرازق رقم (٧/ ٣٥٠) برقم [١٣٤٤٤]، ط: المكتب الإسلامي.

(٢) «الانتصار للقرآن» للباقلاني [١/ ١٩٣].

(٣) رواه مسلم برقم [٢٤٦١].

وعن أبي الأحوص قال: أتيت أبا موسى وعنده عبد الله وأبو مسعود الأنصاري وهم ينظرون إلى المصحف فتحدثنا ساعة ثم خرج عبد الله وذهب. فقال أبو مسعود: والله ما أعلم النبي ﷺ ترك أحدًا أعلم بكتاب الله من هذا القائم[١] يعني عبد الله ابن مسعود.

وعن عاصم عن زر عن عبد الله أن رسول الله ﷺ مرَّ بين أبي بكر وعمر وعبد الله قائمٌ يصلي فافتتح سورة النساء يسجلها فقال ﷺ: «**من أحب أن يقرأ القرآن غضًّا كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد**».

فأخذ عبد الله في الدعاء فجعل رسول الله ﷺ يقول: «**سل، تعط**»، فكان فيما سأل: اللهم إني أسالك إيمانًا لا يرتد ونعيمًا لا ينفد ومرافقة محمد ﷺ في أعلى جنان الخلد، فأتى عمر عبد الله يبشره فوجد أبا بكر خارجًا قد سبقه فقال: إنك لسباق بالخير[٢].

وعن مسروق قال: ذكر عبد الله عند عبد الله بن عمرو فقال: ذاك رجل لا أزال أحبه بعدما سمعت رسول الله ﷺ: استقرئوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود- فبدأ به - وسالم مولى أبي حذيفة وأبيٍّ بن كعب ومعاذ بن جبل[٣].

وعن حبَّه بن جوين قال لما قدم عليٌّ الكوفة أتاه نفر من أصحاب عبد الله بن مسعود فسألهم عنه حتى رأوا أنه يمتحنهم فقال: وأنا أقول فيه مثل الذي قالوا وأفضل، قرأ القرآن، وأحل حلاله، وحرم حرامه فقيه في الدين عالمٌ بالسنة.

---

(١) رواه مسلم برقم [٢٤٦١].

(٢) رواه أحمد(١/ ٤٤٥)، والحاكم (٣/ ٣١٧) وحسنه الأرناؤوط كما في «السير» (١/ ٤٧٥)، ط: الرسالة.

(٣) رواه البخاري برقم [٣٧٥٨]، ومسلم برقم [٢٤٦٤].

وعن عون بن عبد الله عن أخيه عبيد الله قال: كان عبد الله إذا هدأت العيون قام فسمعتُ له دويًّا كدويِّ النحل[١].

وقال الثوري عن عاصم عن زر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أديموا النظر في المصحف.

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان إذا اجتمع إليه إخوانه نشروا المصحف فقرأوا فيه وفسَّر لهم[٢].

٦- الأشعريون رضي الله عنهما:

تأمل في هذا الفضل وتلك الكرامة التي امتن الله بها علي هؤلاء الصادقين المخلصين الذين استنارت بيوتهم في الليل بالقرآن ولهجت ألسنتهم بتلاوته وجالت في رياض معانيه قلوبهم حتى يثني عليهم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، في الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار**»[٣]. يا له من فضل ونبل ويا لها من منقبة وكرامة أن يثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمداومة التلاوة في الليل وشغفهم بذلك وحرصهم عليه قال النووى رحمه الله: والمراد يدخلون منازلهم إذا خرجوا لشغل ثم رجعوا وفيه دليل لفضيلة الأشعريين وفيه أن الجهر بالقرآن في الليل فضيلة إذا لم يكن فيه إيذاء لنائم أو مصلٍّ أو غيرهما ولا رياء والله أعلم[٤].

---

(١) «الطبقات» لابن سعد (٣/ ١/ ١١٠)، (٣/ ١/ ١١١).

(٢) «فضائل القرآن» لابن كثير، وحسن الأثر الأول الحويني وصحح الثاني ابن كثير ص[٢١٠-٢١١].

(٣) رواه البخاري برقم[٤٢٣٢] ومسلم برقم [٢٤٩٩].

(٤) «شرح النووي على مسلم» (٨/ ٣٠٠)، ط: دار الحديث.

٧-أبو موسى الأشعري رضي الله عنه :

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : **«يا أبا موسى، لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود»**(١).

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فأخذ بيدى فدخلت معه فإذا رجل يقرأ ويصلي فقال: «لقد أوتي هذا مزمارًا من مزامير آل داود» وإذا هو عبد الله بن قيس أبو موسى الأشعري قال قلت يا رسول الله فأخبره، فأخبرتُه فقال لم تزل لي صديقًا(٢).

وقال أبو سلمة: وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى وهو جالسٌ في المجلس يا أبا موسى، ذكرنا ربنا، فيقرأ عنده أبو موسى وهو جالس في المجلس. ويتلاحن(٣)، وعنه رضي الله عنه قال: إني أقرأ القرآن في صلاتي وأقرأ على فراشي.

هذا برهان الحب الصادق ودليل الإيمان الراسخ، وشاهد بما في القلوب من عبودية لعلام الغيوب جَلَّ جَلَالُه دون ذكره على كل حال وأفضل الذكر وأكلمه وأحسنه وأجمله وأهمه وأنفعه تلاوة القرآن بتدبر وفهم.

إلى العبَّاد في الدنيا ... جنان الخلد تشتاقُ
عليهم حين تلقاهم ... سكينات وإطراقُ
يضجون إلى الله ... ودمع العين مهراقُ
وقد قاموا فلا يهجع ... من قد ذاق ماذاقوا

---

(١) رواه البخاري برقم [٥٠٤٨]، والترمذي برقم [٣٧٥٥].

(٢) رواه أحمد (٥/ ٣٥٩) وحسنه شيخنا العدوي في «الصحيح المسند من فضائل الصحابة» [٣٧٦].

(٣) رواه ابن حبان كما في «موارد الظمآن» [٢٢٦٤] وقال الشيخ مصطفى حسن لغيره كما في «الصحيح المسند» [٣٧٧].

٨- أسيد بن حضير رضي الله عنه:

وهذا منيب أواه خاشع مخبت، وصحابي كريم من أصحاب النبي ﷺ يقوم في دياجير الليل ساهرًا يلتذ بطيب المناجاة، ويسعد بتلاوة كلام الله يترنم بآيات الله في الليل ويقتبس من نور القرآن فيتعطر الكون من حوله بعبير تلاوته وتمتلئ الأرض من حوله فرحًا وطربًا بعذوبة التلاوة وجمال القراءة للقرآن حتى تتنزل الملائكة من السماء لتستمع وتنصت إلى قراءته رضي الله عنه قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه:

إن أسيد بن حضير بينما هو ليلة يقرأ في مربده إذا جالت فرسه فقرأ ثم جالت فقرأ ثم جالت أيضًا قال أسيد فخشيت أن تطأ يحيي، فقمتُ إليها فإذا مثل الظلة فوق رأسي فيها أمثال السرج عرجت في الجو حتى ما أراها قال فغدوت على رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله، بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مربدي إذ جالت فرسي فقال رسول الله ﷺ: «**اقرأ ابن حضير**» قال: فقرأت ثم جالت أيضًا، فقال رسول الله ﷺ: «**اقرأ ابن حضير**» قال: فانصرفت وكان يحيى قريبًا منها فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج عرجت في الجو حتى ما أراها، فقال رسول الله ﷺ: «**تلك الملائكة كانت تستمع لك ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم**»(١).

٩- تميم الداري رضي الله عنه:

روى أبو الضحى عن مسروق قال: قال لى رجلٌ من أهل مكة هذا مقام أخيك تميم الدارى صلَّى ليلة حتى أصبح أو كاد يقرأ آية يردِّدها ويبكي ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢٠].

وعن أبي المهلب قال: كان تميم يختم القرآن في سبع. وعن ابن سيرين أن تميمًا الدارى كان يقرأ القرآن في ركعة(٢).

---

(١) رواه مسلم برقم [٧٩٦].

(٢) «السير» للذهبي، (٤/ ٧٦)، ط: التوفيقية، و«صفة الصفوة» (١/ ٣٠٧)، ط: المنار.

وعن صفوان بن سليم قال: قام تميم الداري في المسجد بعد أن صلى العشاء فمر بهذه الآية ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]. فما خرج منها حتى سمع أذان الصبح[١].

١٠- سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه:

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: أبطأت على عهد رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء ثم جئت فقال: أين كنت؟ قلت: كنت أستمع قراءة رجل من أصحابك لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد قالت فقام وقمت معه حتى استمع له، ثم التفت إليَّ فقال: هذا سالم مولي أبي حذيفة الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا[٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن المهاجرين نزلوا بالعُصبة إلى جنب قباء فأمهم سالمٌ مولى أبي حذيفة لأنه كان أكثرهم قرآنًا. فيهم عمر وأبو سلمة بن عبد الأسد[٣].

١١- عبد الله بن عباس رضي الله عنه:

وهذا حبر الأمة وترجمان القرآن، الذي فاز بدعاء رسول الله ﷺ فنال تلك الكرامة العالية والمنزلة السامية فكان بحرًا للعلم وينبوعًا للهدى، وشفاء للأفهام، وبصيرة نافذة تبدِّد ظلام الانحراف والجهل، إنه إمام التفسير، والمرجع في الفتوي قال فيه تلميذه مسروق: كنت إذا رأيت ابن عباس قلت: أجمل الناس، فإذا نطق قلت: أفصح الناس، فإذا تحدث قلت: أعلم الناس[٤].

عن ابن أبي مليكة قال: صحبت ابن عباس من مكة إلى المدينة فكان إذا نزل قام شطر الليل فسأله أيوب كيف كانت قراءته؟ قال قرأ ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩] فجعل يرتل ويكثر في ذلك النشيج[٥] أي البكاء.

---

(١) «صفة الصفوة» (١/ ٣٠٨).

(٢) رواه ابن ماجه [١٣٣٨] وأحمد (٦/ ١٦٥) وقال الذهبي: إسناده جيد كما في «السير» (٣/ ١٠٠) وقال الشيخ مصطفى العدوي: رجاله ثقات كما في «الفضائل» [٣٥٨].

(٣) رواه البخاري رقم [٦٩٢].

(٤) رواه الحاكم(٣/ ٥٣٧) وصححه ووافقه الذهبي.

(٥) «السير» للذهبي (٤/ ٤١٦) ط التوفيقية.

وعن شقيق بن سلمة قال: خطب ابن عباس وهو على الموسم فافتتح سورة البقرة فجعل يقرأ ويفسر فجعلت أقول: ما رأيت ولا سمعتُ كلام رجل مثله، ولو سمعته فارس والروم لأسلمت.

وعن أبي حمزة عن ابن عباس قال: لأن أقرأ البقرة في ليلة وأتفكر فيها أحب إليَّ من أن أقرأ القرآن هذرمة.

وقال الحسن: كان ابن عباس يقوم على منبرنا هذا فيقرأ البقرة وآل عمران فيفسرهما آية آية[1].

وانظر إلى دقة فهمه للقرآن وعلمه بتأويله وقوة حجته في رده على الخوارج حتى شرح الله صدر عشرين ألفًا منهم وأنقذهم الله به من التيه والانحراف والضلال.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما اعتزلت حروراء وكانوا في دار علي حدتهم قلت لعلي: يا أمير المؤمنين أبرد عن الصلاة لعلِّي آتى هؤلاء القوم فأكلمهم قال: فإنى أتخوفهم عليك قال قلت كلا إن شاء الله، قال: فلبستُ أحسن ما أقدر عليه من هذه اليمانية - ثياب- فدخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة، فدخلت علي قوم لم أر قومًا قط أشد اجتهادًا منهم أي في العبادة - أيديهم كأنها ثغن الإبل ووجوههم معلبة من آثار السجود قال فدخلت فقالوا: مرحبًا بك يا ابن عباس، ما جاء بك؟ قال: جئت أحدثكم عن أصحاب رسول الله ﷺ نزل الوحي وهم أعلم بتأويله فقال بعضهم: لا تحدثوه وقال بعضهم لنحدثنه قال: قلت: أخبرونى ما تنقمون على ابن عم رسول الله ﷺ وختنه وأول من آمن به - يقصد عليًا - وأصحاب رسول الله ﷺ معه؟ قالوا: ننقم عليه ثلاثًا. قلت: ما هن؟ قالوا: أولهن أنه حكَّم الرجال في دين الله وقد قال الله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ قال: قلت:وماذا؟ قالوا: وقاتل ولم يسب ولم يغنم، لئن كانوا كفارًا لقد حلت له أموالهم ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت

(١) «صفة الصفوة» (١/ ٣١٢- ٣١٥)، ط: دار المنار.

عليه دماؤهم قال قلت: وماذا؟ قالوا ومحا عن نفسه أمير المؤمنين فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين قال: قلت: أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم وحدثتكم من سنة نبيكم ﷺ مالا تنكرون أترجعون؟ قالوا: نعم، قال: قلت: أما قولكم إنه حكم الرجال في دين الله فإنه يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴾ [المائدة: ٩٥]. وقال في المرأة وزوجها ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ ﴾ [النساء: ٣٥]. أنشدكم الله أحكم الرجال في حقن دمائهم وأنفسهم وصلاح ذات بينهم ظاحق أم في أرنب ثمنها ربع درهم؟ قالوا: اللهم حق دمائهم وصلاح ذات بينهم. قال: خرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم.

وأما قولكم إنه قاتل ولم يسب ولم يغنم أتسبون أمكم أم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها؟ إن قلتم نعم فقد كفرتم - يقصد عائشة رضي الله عنها - وإن زعمتم أنها ليست بأمكم فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام إن الله عَزَ وَجَلَّ يقول ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ ﴾ [الأحزاب: ٦]. فأنتم ترددون بين ضلالتين فاختاروا أيهما شئتم؟ أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم.

قال: وأما قولكم إنه محا عن نفسه أمير المؤمنين فإن رسول الله ﷺ دعا قريشًا يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتابًا فقال: اكتب هذا ما قاضي عليه محمد رسول الله «فقالوا: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال: والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى اكتب يا علي محمد بن عبد الله» فرسول الله ﷺ كان أفضل من علي. أخرجتُّ من هذه؟ قالوا: اللهم نعم. فرجع منهم عشرون ألفًا وبقى منهم أربعة آلاف فقتلوا[1].

(١) رواه الطبراني [١٠٥٩٨]، وأبو نعيم في «الحلية» وحسنه الشيخ مصطفى العدوي في «الصحيح المسند».

الصالحون من بعد الصحابة:

هذا هو عمر بن عبد العزيز يقول عنه ميمون بن مهران: قرأ عمر بن عبد العزيز ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ٢] ما أرى المقابر إلا زيارة ولا بد لمن زار أن يرجع إلى الجنة أو النار.

وقالت فاطمة بنت عبد الملك: كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول: اللهم اخف عليهم موتي ولو ساعة من نهار، فلما كان اليوم الذي قبض فيه خرجت فجلست في بيت آخر وبيني وبينه باب وهو فيه فسمعته يقول ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] ثم هدأ فجعلت لا أسمع له حسًا ولا كلامًا قالت: فقلت للوصيف: انظر أمير المؤمنين فلما دخل عليه صاح فوثبتُّ فدخلت عليه فإذا هو ميت قد استقبل القبلة وأغمض نفسه[1].

وهذا سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول القاسم بن أبي أيوب: سمعت سعيد بن جبير يردد هذه الآية في الصلاة بضعًا وعشرين مرة ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]

وعن هلال بن يساف قال: دخل سعيد بن جبير الكعبة فقرأ القرآن في ركعة.

وعن عبد الملك بن أبي سليمان أن سعيد بن جبير كان يختم القرآن في كل ليلتين[2].

وتأمل هذا الحوار بين سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والحجاج بن يوسف - عامله الله بما يستحق- لتفقه كيف كان القرآن ملازمًا له في كل أحواله لا سيما وهو يستقبل الموت أمام هذا الطاغية المبير. عن سالم بن أبي حفصة قال: لما أتي الحجاج بسعيد بن جبير قال أنا سعيد بن جبير قال: أنت شقي بن كسير لأقتلنك قال: فإذًا أنا كما سمتني أمي ثم قال

(١) «الحلية» (٥/ ٢١٧)، ط: مكتبة السعادة.

(٢) «السير» للذهبي (٥/ ٢).

دعونى أصلى ركعتين قال: وجهوه إلى قبلة النصارى قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥].

وقال: إني أستعيذ منك بما عاذت به مريم قال: وما عاذت به؟ قال: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨][(١)].

وهذا محمد بن كعب القرظي قالت أمه له: يا بني لولا أني أعرفك صغيرًا طيبًا وكبيرًا طيبًا لظننت أنك أحدثت ذنبًا موبقًا لما أراك تصنع بنفسك في الليل والنهار قال: يا أماه وما يؤمنني أن يكون الله قد اطلع عليَّ وأنا في بعض ذنوبي فمقتني فقال اذهب لا أغفر لك؟ مع أن عجائب القرآن ترد بي على أمور حتى إنه لينقضى الليل ولم أفرغ من حاجتي.

وقال محمد بن كعب: لأن أقرأ في ليلتى حتى أصبح ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١] والقارعة لا أزيد عليهما وأتفكر فيهما وأتردد أحب إلى من أن أقرأ القرآن هذا أو قال أنثره نثرًا[(٢)].

قال الحسن البصري: يا ابن آدم، والله إن قرأت القرآن وآمنت به ليطولن في الدنيا حزنك وليشتدن في الدنيا خوفك وليكثرن في الدنيا بكاؤك[(٣)].

قال أبو بكر بن عياش: دخلت على عاصم بن أبي النجود فأغمي عليه ثم أفاق ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢] فهمز فعلمت أن القراءة منه سجية[(٤)].

---

(١) السابق (٥/ ٢٨٣).

(٢) «صفة الصفوة» لابن الجوزي (١/ ٣٩٧).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٧٥)، ط: الرسالة.

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٦٠)، ط: الرسالة.

وعن جعفر بن محمد بن عبيد الله بن موسى قال سمعت جدي يقول كنت أقرأ على علي بن صالح فلما بلغت إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾[مَرْيَمَ :٨٤] سقط الحسن ابن صالح يخور كما يخور الثور فقام إليه على فرفعه ومسح وجهه ورش عليه الماء وأسنده إليه[١].

وقال نعيم بن حماد: قال رجل لابن المبارك قرأت البارحة القرآن في ركعة فقال: لكني أعرف رجلًا لم يزل البارحة يكرر ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ [التَّكَاثُرِ :١] إلى الصبح ما قدر أن يتجاوزها. يعني نفسه[٢].

وعن ابن حرملة قال: قلت لبرد مول ابن المسيب ما صلاة ابن المسبب في بيته؟ قال: ما أدرى إنه ليصلى صلاة كثيرة إلا أنه يقرأ بـ ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ [صٓ :١].

وعن عاصم بن عباس الأسدي قال: كان سعيد بن المسبب يذكر ويخوف وسمعته يقرأ في الليل على راحلته فيكثر وسمعته يجهر بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»[٣].

وقال محمد بن عوف الحمصي: رأيت أحمد بن أبي الحواري عندنا بأنطرسوس فلما صلي العتمة قام يصلي بـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾إلى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قطفت الحائط كله ثم رجعت فإذا هو لا يجاوزها ثم نمتُ ومررتُ في السحر وهو يقرأ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فلم يزل يرددها إلى الصبح[٤].

وعن أحمد بن سهل الهروى قال: كنت ساكنًا في جوار بكاربن قتيبة فانصرفت بعد العشاء فإذا هو يقرأ ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [صٓ :٢٦] إلى آخر الآية قال: ثم نزلتُ في السحر فإذا هو يقرؤها ويبكي فعلمتُ أنه كان يتلوها من أول الليل[٥].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٣٦٤)، ط: الرسالة.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٣٩٧)، ط: الرسالة.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٤٠)، ط: الرسالة.

(٤) «السير» للذهبي(١٢/ ٨٧ - ٨٨)، ط: الرسالة.

(٥) السابق (١٢/ ٦٠٠).

وقال أبو عثمان المغربى: ليكن تدبرك في الخلق تدبر عبرة وتدبرك في نفسك تدبر موعظة، وتدبرك في القرآن تدبُّر حقيقة قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢] جرأك به علي تلاوته ولولا ذلك لكلت الألسن عن تلاوته[١].

وقال أبو الأحوص الحبشي: إن كان الرجل ليطرق الفسطاط[الخيمة] طروقًا أي يأتيه ليلًا فيسمع لأهله دويًا كدوى النحل قال: فما بال هؤلاء يأمنون ما كان أولئك يخافون؟

وعن إبراهيم النخعي كان يقول: اقرؤوا من الليل ولو حلب شاة.

وعن يزيد الرقاضي قال: إذا أنا نمت ثم استيقظت ثم نمت فلا نامت عيناي.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ تعقيبًا على ذلك:

وإنما رجحت صلاة الليل وقراءته لكونها أجمع للقلب وأبعد عن الشاغلات والملهيات والتصرف في الحاجات وأصون عن الرياء وغيره من المحبطات مع ما جاء الشرع به من إيجاد الخيرات في الليل فإن الإسراء برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان ليلًا، وحديث«ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له»[٢].

وفي الحديث أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيرًا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة»[٣] [٤].

---

(١) السابق(١٦/ ٣٢١)

(٢) رواه البخاري برقم [١١٤٥] وهذا لفظه، ومسلم برقم [٧٥٨].

(٣) رواه مسلم برقم [٧٥٨].

(٤) «التبيان في آداب حملة القرآن» (٤٨- ٤٩)، ط: مؤسسة التقويم بيروت.

والإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت يقول عنه مسعر بن كدام: رأيت أبا حنيفة قرأ القرآن في ركعة.

وعن القاسم بن معن أن أبا حنيفة قام ليلةً يردد قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾[القمر: ٤٦]، ويبكي ويتضرع إلى الفجر[(١)].

وصلى أبو حنيفة العشاء خلف علي بن الحسن المؤذن فقرأ قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾[الزلزلة: ١] فلما انتهت الصلاة وخرج أبو حنيفة حزينًا متفكرًا وهو آخذ بلحيته قائمًا يقول: يا من يجزى بمثقال ذرةخير خيرًا ويامن يجزي بمثقال ذرة شر شرًا أجر عبدك النعمان من النار وما يقرب إليها وأدخله سعة رحمتك[(٢)].

وهذا عبد الله بن عون الذي يقول عنه ابن المبارك: ما رأيت احدًا ممن ذكر لي إلا إذا كان إذا رأيته دون ما ذكر لي إلا ابن عون وحيوة بن شريح.

قال بكار بن محمد السيريني: وكان له سُبعٌ يقرؤه كل ليلة فإذا لم يقرأه أتمه بالنهار.

وروى عنه مسعر أنه قال: ذكر الناس داء وذكر الله دواء.

قال الذهبي تعقيبًا على ذلك: إي والله فالعجب منا ومن جهلنا كيف ندع الدواء ونقتحم الداء قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ ﴿ فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢] ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقال ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، ولكن لا يتهيأ ذلك إلا بتوفيق الله، ومن أدمن الدعاء ولا زم قرع الباب فتح له.

وعمر بن المنكدر يقول عنه سالم بن أبي بسطام كان عمر بن المنكدر لا ينام الليل يكثر البكاء على نفسه فشق ذلك على أمه فقالت لأخيه محمد بن المنكدر: إن الذي يصنع عمر يشق عليَّ فلو كلمته في ذلك فاستعان عليه بأبي حازم فقالا له: إن الذي تصنع يشق على أمك قال: فكيف أصنع؟ إن الليل إذا دخل على هالني فأستفتح القرآن وما تنقضى

(١) «السير» للذهبي (٦/ ٥٧١).

(٢) «مناقب أبي حنيفة» (٢/ ٢٥٥).

نهمتي فيه قالا: فالبكاء؟ قال: آية من كتاب الله أبكتني قالا: وما هي؟ قال: قوله عَزَ وَجَلَّ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

وعن عمر بن محمد بن المنكدر قال: كنت أمسك على أبي المصحف قال فمرت مولاة له فكلمها فضحك إليها ثم أقبل يقول إنا لله - إنا لله - حتى ظننت أنه قد حدث شيء فقلت: مالك؟ فقال: أما كان لي في القرآن شغل حتى مرت هذه فكلمتها؟!(١).

وذكر الذهبي في السير عن محمد بن المنكدر بينما هو ذات ليلة قائم يصلي إذ استبكى فكثر بكاؤه حتى فزع له أهله وسألوه فاستعجم عليهم وتمادى في البكاء فأرسلوا إلى أبي حازم فجاء إليه فقال: ما الذي أبكاك؟ قال: مَّرت بي آية قال: وما هي؟ قال﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، فبكي أبو حازم معه، فاشتد بكاؤهما(٢).

وقال الحارث بن سعيد كنا عند مالك بن دينار وعندنا قارىء يقرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ فجعل مالك ينتفض وأهل المجلس يبكون ويصرخون حتى انتهي إلى هذه الآية ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]. قال فجعل والله مالكٌ يبكي ويشهق حتى غش عليه فحمل من بين القوم صريعًا(٣).

وهذا الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول: حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر سنين.

وكان يقول: من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن نظر في الفقه نبل مقداره، ومن تعلم اللغة رقَّ طبعه، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه.

---

(١) «صفة الصفوة» (١/ ٤٠١- ٤٠٣).

(٢) «السير» (٦/ ١٦٨)، و«صفة الصفوة» (١/ ٤٠١).

(٣) «الرقة والبكاء» لابن قدامة، ص [١٩٤]، ط: التوفيقية.

وقال أبو بكر بن أبي طاهر وكان للشافعي في رمضان ستون ختمة لا يحسب منها ما يقرأ في الصلاة[١].

وقال بحر بن نصر: ما رأيت ولا سمعت كان في عصر الشافعي أتقي لله ولا أورع من الشافعي ولا أحسن صوتًا منه بالقرآن.

وعن الحسين الكرابيسى قال: بت مع الشافعي ثمانين ليلة فكان يصلي نحو ثلث الليل، وما رأيته يزيد عن خمسين آية فإذا أكثر فمئة وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل الله لنفسه وللمؤمنين أجمعين، ولا يمر بآية عذاب إلا تعوذ بالله وسأل النجاة لنفسه ولجميع المؤمنين فكأنما جمع له الرجاء والرهبة معًا[٢].

وعن محمد بن مسعر قال: كان أبي لا ينام حتى يقرأ نصف القرآن فإذا فرغ من ورده لفا رداءه ثم هجع عليه هجعة خفيفة ثم يثب كالرجل الذي ضل منه شيء فهو يطلبه وإنما هو السواك والطهور ثم يستقبل المحراب فكذلك إلى الفجر وكان يجهد على إخفاء ذلك جدًا.

وقال إبراهيم بن أدهم: لقيت عابدًا قيل إنه لا ينام الليل فقلت له: لم لا تنام؟ فقال: منعتني عجائب القرآن أن أنام.

وعن أبي بكر العطوي قال: كنت عند الجنيد حين مات فختم القرآن ثم ابتدأ البقرة فقرأ سبعين آية ثم مات رَحِمَهُ اللَّهُ[٣].

قال أبو عبد الله الحاكم: رحلت إليه - أي إلى أبي النضر محمد بن محمد بن يوسف الطوسي مرتين وسألته متي يتفرغ للتصنيف مع هذه الفتاوي؟ قال: جزأت الليل فثلثه أصنف، وثلثه أقرأ القرآن، وثلثه للنوم.

---

(١) «صفة الصفوة» لابن الجوزي (١/ ٤٦٢- ٤٦٥).

(٢) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٥٨)، ط: دار التراث.

(٣) «حلية الأولياء» لأبي نعيم.

وقال الفقيه أحمد بن نصر بن زياد أبو عبد الله القرشي: قرأت أنا على خالي القرآن سبعين مرة أو زيادة على السبعين مرة.

وقال ابن أبي حاتم: لم يدعني أبي أطلب الحديث حتى قرأت القرآن على الفضل ابن شاذان.

وتلقن أبو رجاء العطاردي القرآن من أبي موسى وعرضه علي ابن عباس، وتلا عليه أبو الأشهب العطاردي يقول عنه أبو الأشهب: كان أبو رجاء يختم بنا في رمضان كل عشرة أيام. وقال ابن الأعرابي: كان شيخًا كبيرًا كثير الصلاة والتلاوة مات سنة ١٠٧هـ[١].

قال الحافظ ابن رجب عن شيخه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وكان في مدة حبسه مشتغلًا بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكير ففتح الله عليه من ذلك خيرًا كثيرًا[٢].

وهذا الإمام أبو حيان صاحب البحر المحيط يقول عنه السيوطي كأن كثير الخشوع والبكاء عند قراءة القرآن وكان ينشد فيقول:

أريد من الدنيا ثلاثًا وإنها ... لغاية مطلوب لمن هو طالبُ
تلاوة قرآن ونفسٌ عفيفة ... وإكثار أعمال عليها أواظبُ

وكان يقول: جعلت كتاب الله والتدبر لمعاينه أنيسي إذ هو أفضل مؤانس، وسميري إذا حولكت ظلم الحنادس.

وأنشد يقول:

نعم السمير كتاب الله إن له ... حلاوة هي أحلى من جني الضربِ
به فنون المعانى قد جمعن فما ... يفتن من عجبٍ إلا إلى عجبِ

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة [١٦٧ - ١٦٨]، ط: رمادي للنشر.

(٢) «ذل طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٤٨)، وابن قيم الجوزية، ص [٤٦] للشيخ بكر أبي زيد.

أمـــرٌ ونـهـيٌ وأمـثـال وموعظة وحكمة أودعت في أفصح الكتبِ
لطائف يجتليها كل ذى بصر وروضة يجتنيها كل ذى أدب(١)

وهذا أمير المؤمنين في الحديث وشيخ الإسلام الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ يقول عنه محمد بن أبي حاتم الوارق: دُعي محمد بن إسماعيل إلى بستان بعض أصحابه فلما حضرت صلاة الظهر صلى بالقوم ثم قام للتطوع فأطال القيام، فلما فرغ من صلاته رفع ذيل قميصه وقال لبعض من معه: انظر هل ترى تحت قميصي شيئًا؟ فإذا ذنبور قد أبره في ستة عشر أو سبعة عشر موضعًا وقد تورَّم من ذلك جسده، وكانت آثار الزنبور في جسده ظاهره فقال له بعضهم كيف لم تخرج من الصلاة في أول أمرك فقال: كنت في سورة فأحببتُ أن أتمها(٢).

كلام ربهم آخر ما يختمون به حياتهم:

لله در الصالحين الصادقين، وما أصدق إيمانهم برب العالمين، وما أشد حرصهم على تلاوة كلامه العظيم فقلوبهم وأرواحهم بتلاوة القرآن معمورة، وبتدبر آياته مشغوفة مشغولة، وألسنتهم تردد وتتلو كلام الله فبه يترنمون وبه يلهجون، وبه في صلواتهم يقومون، وفي خلواتهم يأنسون، وفي دروب الحياة كلها بتلاوته يتشبثون، ولتدبر آياته وفهمها هم عاكفون حتى نالوا سعادة الدارين وختمت حياتهم الدنيا بأعظم ما تختم به حياة، وتكون على إثره وفاة ألا هو تلاوة كلام الله.

قال حوشب بن عقيل: سمعت يزيد الرقاشى لما حضره الموت يقول ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ﴾[آل عمران: ١٨٥] ألا إن الأعمال محضرة والأجور مكملة ولكل ساع ما يسعى، وغاية الدنيا وأهلها إلى الموت ثم بكي وقال: يا

(١) «مقدمة تفسير البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي (١/ ٥٣- ٥٤)، ط: دار الكتب العلمية.
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤٤٤).

من القبر مسكنه، وبين يدى الله موقفه، والنار غدًا مورده، ماذا قدمت لنفسك؟ ماذا أعددت لمصرعك؟ ماذا أعددت لموقفك بين يدى ربك[١].

ولما حضرت عبيد بن عمير الوفاة قيل له: ما تشتهى؟ قال أشتهى رجلًا موقنًا بالقرآن يقرأ عليّ[٢].

وعن مطير بن الربيع قال: كان مفضل بن يونس إذا جاء الليل قال: ذهب من عمرى يوم كامل فإذا أصبح قال: ذهبت ليلة كاملة من عمرى. فلما احتضر بكى وقال: قد كنت أعلم أنا لى من كرِّكما على يومًا شديدًا كربه، شديدًا غصصه، شديدًا غُمه، شديدًا عَلْزُه [قلقه وفزعه] فلا إله إلا الذي قضي الموت على خلقه، وميَّزه عدلًا بين عباده ثم جعل يقرأ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢] ثم تنفَّس فخرجت نفسهُ[٣].

قال عبد الله بن موسى: سمعتُ الحسن بن صالح يقول: لما احتضر أخي رفع بصره ثم قال ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء: ٦٩] ثم خرجت نفسه فنظرنا فإذا ثقب في جنبه قد وصل إلى جوفه وما علم به[٤].

عن عبد الله بن شبرمة قال: دخلت مع عامر الشعبي على مريض نعوده فوجدنا لما به ورجل يلقنه الشهادة ويقول له: قل لا إله إلا الله وهو يكثر عليه فقال له الشعبي: ارفق به فتكلم المريض وقال: إن يلقني أولا يلقني فإني لا أدعها ثم قرأ ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦] فقال الشعبي: الحمد لله الذي نجى صاحبنا[٥].

---

(١) كتاب «المحتضرين» لابن أبي الدنيا، ص [١٤٥]، ط: دار ابن حزم.

(٢) السابق ص [١٢٨].

(٣) السابق ص[١٤٩].

(٤) «السير» للذهبي (٧/ ٢٦٨)، ط: التوفيقية، «صفة الصفوة» (٣/ ١٥٣).

(٥) «التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة»، ص [٩١].

قال الخطيب سمعت ابن الفضل القطان يقول:

حضرتُ النقاش وهو يجود بنفسه في ثالث شوال سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة فنادى بأعلى صوته ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٦١] يردها ثلاثًا ثم خرجت نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

وهذا ابن الاسماعيلي إسماعيل بن أحمد توفي سنة ست وتسعين وثلاث مائة فتوفي إكرامًا من الله له في صلاة المغرب وهو يقرأ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ففاضت نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢).

وهذا الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد المقدسي قال عنه الحافظ الضياء تلميذه: كان لا يترك قيام الليل من وقت شيبوبته وسافر هو وجماعة فقام في الليل يصلي ويحرس الجماعة وقلل الأكل في مرضه قبل موته حتى عاد كالعود ومات وهو عاقد على أصابعه يسبح.

وقال أبو المظفر سبط ابن الجوزي وكان آخر كلامه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٣٢](٣).

وهذا الإمام أبو بكر بن النابلسي قال أبو ذر الحافظ: سجنه بنو عبيد - الفاطميون- وصلبوه على السنة، سمعت الدارقطني يذكره ويبكي ويقول: «كان يقول وهو يُسلخ ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾.

وقال معمر بن أحمد بن زياد: أخبرنى الثقة أن أبا بكر سُلخ من مفرق رأسه حتى بلغ الوجه وكان يذكر الله ويصبر حتى بلغ الصدر فرحمه السلاخ فوكزه بالسكين موضع قلبه فقضى عليه، وأخبرني الثقة أنه كان إمامًا في الحديث والفقه، صائم الدهر، كبير الصولة عند العامة والخاصة، ولما سلخ كان يسمع من جسده القرآن(٤).

---

(١) «السير» (١٥/ ٥٧٦) ط: الرسالة.

(٢) السابق (١٧/ ٨٨).

(٣) «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٥٦).

(٤) «السير» للذهبي (١٦/ ١٤٨)، ط: الرسالة.

قال أبو بكر النيسابوري: حضرت إبراهيم بن هانئ عند وفاته فجعل يقول لابنه إسحاق: يا إسحاق ارفع الستر، قال: يا أبت الستر مرفوع قال: أنا عطشان فجاءه بماء، قال: هل غابت الشمس؟ قال: لا قال: فَرُدَّه ثم قال ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٦١] ثم خرجت روحه[١].

وهذا الإمام أبو الوقت السجزى قال ابن الجوزي كان صبورًا على القراءة وكان صالحًا كثير الذكر والتهجد والبكاء على سمت السلف، وعزم عام موته على الحج وهيَّأ ما يحتاج إليه فمات.

قال ابن الجوزي حدثنى أبو عبد الله التكريتي قال لما احتضر عبد الأول [أبو الوقت] أسندته إليَّ فكان آخر كلمة قالها ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦- ٢٧][٢].

وهذا الإمام أبو بكر بن مسلم الحضرمي لما احتضر ابتدأ القرآن فانتهى في سورة طه إلى قول الله تعالى﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤] ففاضت نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وذلك سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة[٣].

قال الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري: حدثني أخي الشيخ محفوظ الشنقيطي مدير عام العلاقات بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف عن شيخ القراء بالمجمع الشيخ عامر السيد عثمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه فقد حباله الصوتية في السنوات السبع الأخيرة من حياته وكان يدرس تلاميذه القراءة فلا يفصح لهم إلا بشهيق وإيماء ثم مرض مرض الوفاة، وكان طريح السرير الأبيض بالمستشفي ففوجئ أهل المستشفي بالرجل

(١) «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٢/ ٤٠١).

(٢) «السير» للذهبي (٢٠/ ٣١١)، ط: الرسالة.

(٣) «ترتيب المدارك» (٦/ ٢٧١).

المريض فاقد الحبال الصوتية يقعد ويدندن بكلام الله بصوت جهوري جذاب مدة ثلاثة أيام ختم فيهن القرآن من سورة الفاتحة إلى سورة الناس ثم أسلم الروح إلى بارئها[١].

وممن نشأ على كتاب الله تعالى وعمر به مجالسه وأشغل به لسانه رجل كان حافظًا لكتاب الله تعالى، وكان يعلمه للناس ويحفظهم إياه بدون أجر ماديٍّ كان كذلك حتى كبر سنه ورق عظمه وبلغ من الكبر عتيًا حتى فقد الذاكرة فنسي جميع من يعرفهم حتى أسماء أبنائه ولازمته هذه الحالة مدة عشرين سنة تقريبًا إلا أن العجيب من أمره أنه كان في هذه المدة يقرأ القرآن فلا يخطيء في آية ولا يسقط كلمة وفي يوم من الأيام وفي وقت السحر بالذات أخذ هذا الرجل ينادي أكبر أولاده باسمه وقد نسيه منذ عشرين سنة فلما سمعه ابنه فرح فرحًا شديدًا وقال: لقد عادت ذاكرته له وعاد رشده وصوابه فقال: لبيك يا والدي ماذا تريد؟ قال يا بني هل ترى هذين الرجلين الجميلين اللذين يرتدي كل منهما عمامة بيضاء؟ قال ابنه: يا والدى حفظك الله لا أرى شيئًا ولعلك رأيت هذا في المنام ولا حقيقة لذلك قال يا بني أراهما عيانًا أمامي الآن وأعجب كيف لا تراهما أنت! قال: يا والدي لا أرى شيئًا فقال: يا بني أودعك وأودع أهلك وأودع الدنيا وأسأل الله أن يجمعنا في دار كرامته في مقعد صدق عند مليك مقتدر ثم رفع سبابته ليوحِّد بها ربَّه ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ثم فاضت روحه وانقطعت أنفاسه على هذه الكلمة العظيمة[٢].

وهذا الشيخ أمين استمر في التعليم والتدريس ونفع الله به خلقًا كثيرًا. وفي آخر أيامه أصابه مرض يصعب الحركة معه فكان يقاوم ويقوم ليعظ الناس متيقنًا أن الله لن يضيع عمله وأن الله عند حسن ظن عبده به فقد جاء الموت للشيخ أمين وهو ابن ثلاثة وستين عامًا وحوله تلاميذه وابنه الشيخ أحمد فأحس بالموت وأحس من حوله بذلك

(١) المجلة العربية عدد [١٧١] ص [٧٠-٧١] نقلًا عن الجزاء من جنس العمل (٢/ ٤٣٤) للدكتور سيد العفاني، ط: ابن تيمية.

(٢) «موسوعة القصص الواقعية» لمصطفى كامل، ص [١٧]، ط: العالمية نقلًا عن الأعمال بالخوايتم لسعد الحجري، ص [٢٢١-٢٢٢].

فهمُّوا بتلقينه الشهادة فالتفت إليهم وصار يقول لهم قولوا لا إله إلا الله قولوا لا إله إلا الله بدلًا من أن يقولوا له ثم ضعف صوته وشخص بصره وهو يقول ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠] والتفت إل من حوله بما يملك من قوة قائلًا السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وفاضت روحه إلى بارئها(١).

وبموقف لشيخ الإسلام يكون مسك الختام يقول الحافظ ابن كثير عن موت شيخ الإسلام ابن تيمية: وكنت فيمن حضر هناك مع شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزِّي ورحمه الله - وكشفت عن وجه الشيخ ونظرت إليه وقبلته وعلى رأسه عمامه بعذبه مغروزة وقد علاه الشيب أكثر مما فارقناه وأخبر الحاضرين أخوه زين الدين عبد الرحمن أنه قرأ هو والشيخ منذ دخل القلعة ثمانين ختمة وشرعًا في الحادية والثمانين فانتهيا إلى آخر اقتربت الساعة﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[القمر: ٥٤-٥٥](٢).

أحبتي إخوتي،،

هكذا كانت حياتهم مع كلام ربهم فكيف تكون حياتنا مع كلام ربنا؟! أين شغفنا بتلاوة القرآن؟! أين حبنا لترتيله وسماعه؟! أين حرصنا على تعلمه وتعليمه؟! أين القرآن في حياة المسلمين في ليلهم ونهارهم، في مجالسهم واجتماعاتهم ما أحوجنا أن نعود إلى هديه وتعلمه وتعليمه اللهم خذ بنواصينا إلى ما يرضيك عنا وقنا شر نفوسنا وألهمنا ذكرك وشكرك يارب.

(١) السابق، ص (٣٢٣-٣٢٤).

(٢) «البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير (١٤/ ١٣٨)، ط: مكتبة المعارف.